مكتبة مصر
تقدم
مجموعة محمد وصحبه

واحد فى السماء

إعداد أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى بالفجالة

مضى عمرانُ بن حُصَين رضىَ اللَّهُ عنه ، وقد بلغ بهِ الضيقُ والحزنُ مبلغاً كبيرا ، فلقد هالَه الأمر ، وعلمَ أنَّ والدَه (حُصَيناً) قدْ طُبِع على قلبِه ، فحِيلَ بينَه وبيَن الإسْلام ، وكأنما أرادَ اللّهُ أنْ يظلَّ فى ظلماتِ الشركِ لا يدرى إلى أىِّ غايةٍ ستنتهى به هذه الحُلكةُ القاتمة ، والدُّجنَةُ المُهلِكة ، يصطلى بنارِ عقيدةٍ فاسدةٍ لا نجاءَ معها من هَولِ القيامَة ، ولا استقامةَ معها فى أمورِ الدُّنيا .

ألا إنما الإسلامُ توفيقٌ من اللّه ، ونورٌ يُضىءُ القلوب ، ويشْرحُ الصدور ، يُنعِمُ اللّهُ به على من يشاء ، ويحرِمُ من سَناه مَن يريد ، لا يتوقّفُ على كَثرةِ علم ، أو كِبَرِ سن ، وإلا فأينَ هو من والدِه ، وهو الرَّجلُ الذى تعرفُ له قريشٌ قدرَه ومكانَته، تُجلُّه إجلالاً عظيما ، وتوقّره توقيرًا يجعله فى مصافّ القِدّيسين المطهَّرين ؟ .

وإذا ذُكِرَ اسمُ حُصين فى قريش ، فإنما ذُكِرَ العقلُ الكامل ، والفكرُ الثّاقب ، والرأىُ الرَّشيد .



فما بالُه الآن ينكصُ على عقبَيْه ولا يجيبُ داعيَ اللّه ؟

مضى عُمرانُ يُديرُ هذهِ الأفكارَ في رأسِه ، وتمضي تِباعًا في مُخيّلتِه ، حتى أجهدَه التّفكيرُ في هذا .. هو يَعرفُ أن الهُدى هدى اللّه ، وأنه مهما بَذل ليُسلِمَ والدُه ويؤمنَ باللّه ، فلا قيمةَ لسعيِه إذا لم يرد اللّهُ ذلك ، وهو يعلمُ أن اللّه لم يكلّفْه بإسلامِ والدِه ، ولم يجعلْ هذا أمراً حتما ، فليس هذا في مقدورِه ، واللّهُ لم يكلّفْ أحداً إلا بما يُطيق . هو يعلم هذا ولكنه حزينٌ على هذا الرَّجلِ الذى سيدفعُه شِركُه إلى الهاويةِ في أعماقِ الجحيم .. إنه والدُه على كلِّ حال ، وهو السَّببُ في وجودِه ، وإن من الإنصافِ للحقِّ أن يُجلَّه ويَحترمَه ، ويرجو له الخيرَ على الدَّوام ، وهل هناك أفضلُ من الإسلامِ يتمناه له ، ويعملُ على تتويجِه به ؟!

أجلْ ، من الإنصافِ أن يجلّه ويحترَمه ، ولكنّه في الواقعِ لا يَشعرُ نحوَه بأىِّ نوعٍ من أنواعِ الاحترام ، أو أدْنى عاطفةٍ من عواطفِ الإجلالِ والتقدير ، ذلك لأنه يرى أن المسلمَ يجبُ أن يترفّعَ عن تعظيمِ غيرِ المسلمِ كائنًا ما كان ، وهو لا يفهمُ غيرَ هذا مهما اختلفت الآراءُ فيه .

وهكذا ، مضَى عمرانُ وهو يحملُ بين جنبَيْه قلباً لا ينظرُ إلى أىِّ صلةٍ لغيرِ اللّه .

ـ يا حصين ، أنتَ تعلمُ منزلتَكَ فى نفوسِنا ، ومكانتَك فى قلوبِنا ، وإننا جئناك اليومَ لأمرٍ لا يصلحُ له أحدٌ سواك ، فهل تجيبُ دعاءَنا ، وتحقّقُ آمالَنا فيك ؟!

استمع حصينٌ إلى وفدِ قريش ، وقد باتت على وجهِه علائمُ الاهتمامِ بهذا الموضوع ، الذى ملَك عليهم كلَّ أحاسيسِهم ، وأخذَ منهم كلَّ مأخذ ، ولم يزدْ على قولِه :

ـ حصين خادِمُ قريشٍ الأمين .

ـ وهذا أملُنا فيك ، دُمتَ لقريشٍ تَحمى الذّمار .

ـ مُروا بما تشاءون .

ـ لعلّك رأيتَ من أمرِ محمدٍ ما أوقعك مثلَنا فى حَيْرةٍ ودهشةٍ وعجَب ، إن دعوتَه تَزيدُ كلَّ يومٍ قوّةً على قوة ، وإن أعوانَه ليَكثرُون فى إخلاصٍ ومحبّة ، وتعاوُن واتّحاد ، حتى إن أحدَهم ليُؤْثِر أخاه على نَفْسِه ، فيعطيه اللُقمةَ بدلَ أن يأكلَها ، ويناولُه الشَّربة ، وربما فيها حياتُه دونَ أن يجدَ من نَفْسِه غَضاضةً أو ألما، وإن هذا الوضعَ هو أخطرُ الأوضاعِ على عقائِدنا وآلهتِنا ، وبخاصةٍ وأن محمدًا يذكرُ آلهتَنا دائمًا بسوء ، ويسُبُّها من حينٍ إلى حين ، ويسفِّه أحلامَنا وعقولَنا ، وأننا نعبدُ ما لا يَسمعُ ولا يعقلُ ، ولا يُغْني عنا شيئا ..

ـ أجلْ ، أعرفُ هذا وأفهمُه .

- لابدَّ إذن من حلِّ لهذا الوضع ، فلا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن نبقى هكذا مكتوفِى الأيدى ، وهو دائبُ السَّعى والكَد ، لا يهنُ له عَزم ، ولا تضعُفُ له قوة ، وإنما يمضِى إلى غايتِه التى يريدُ فى قوةٍ وصرامةٍ وعزمٍ عجيب .. !

- وماذا تُريدون ؟ أتودُّون إيذاءَه وتشتيتَ شملِه ؟ إنْ كان ذلكَ فقدْ فعلتُم الكثيرَ منه ، ولم يُفِدْ شيئاً فى إيقافِ هذا التيارِ العجيب .

- لا نبغى هذا ، ولا نريدُه ، ولكننا اعتزمْنا أمرا .. اعتزمنا أن نبعَثك إليه ، رسولاً من قِبلنا ، تفاوضُه باللّين أن يدعَ ذِكرَ آلهتِنا ، فلا يسبُّها أحدٌ من المسلمين ، ولا يسبُّها هو كذلك . وألا يذكرَ أحلامَنا بسوء ، وعسى إن فعل ، أن يقفَ سيلُ الدعوةِ وخطرُها عند حد ، ولا يعكّر علينا صفوَ عِبادتِنا ، ونعيمَ عقيدتِنا .

- ولكن أأذهبُ وحيدا ؟

- سنذهبُ معك جميعا ، ولكن لن ندخلَ إلى مجلس محمد ، وإنما سنبقَى خارجَ البيت ، وتدخلُ أنتَ وحدَك .

وكأنما فهم حصين ، أنهم مُحِقون فيما ذهبوا إليه ، فله على محمدٍ دالةٌ لا شكَّ ، لأن ابنَه عمرانَ من أتباعِه وأنصاره ، وأن المسلمين جميعاً ينظرون إليهِ نظرةً خاصة ، تختلفُ عن نظرتِهم إلى أىِّ شخص عادي غيره .

وهكذا ساقه القدرُ إلى مجلس الرَّسول الكريم ، وجلس وفدُ قريش قريباً من

بابِ النّبى ، وقد أمسكوا بقلوبهم الواجفة ، وأفئدتهم الخائفة ، وانتظروا ما تُسفِرُ عنه هذه المقابلة ، التى سيترتَّب عليها كثيرٌ من النّتائج إذا نجح حصين فى مَسعاه ، وقَبِل محمدٌ ما سيَعرِضُ عليه .

إنهم شعروا بالذِلّةِ والضّعَةِ أينما حَلّوا ، فما أعنفَ الطعنَ فى عقيدتِهم ، وتسفيه أحلامِهم ، وسَبَّ آلهتِهم ، وهم لا يملكون دَفعَ الضُرِّ عن هذه الآلهةِ التى لها فى نفوسِهم منزلةٌ لا تعادلُها سوى الرّوح . إنهم يشعرون بينهم وبينَ أنفسِهم بهذه الضّعةِ وتلك الذّلة ، وخاصّةً وأن هذه الآلهةَ لا تدفعُ هى عن نفسِها شيئا . فما قيمةُ إلهٍ لا يدفعُ عن نفسِه الضُر ؟ إن الإلهَ يجبُ أن يصرّفَ الكونَ ، وينفع ويضرُ ، فما بالُها لا تُبدى حراكا ؟ ولا تجيبُ إذا سُئلت ؟ ولكنْ هى العقيدةُ الموروثةُ لا غير ، على هذا كان الآباء ، وعلى هذا كذلك يسيرُ الأبناء ، دونَ عقلٍ ولا رويّة ، وكأنما هى الخرافُ تُساقُ إلى حَتفِها ، حيثُ النهايةُ الأليمةُ التى لا مفرَّ منها . وكان هذا الإحساسُ يَفيضُ به قلبُ كلِّ فردٍ من أفرادِ الوفدِ القرشيِّ الجالسِ قريباً من بابِ النبى الكريم ، فى انتظارِ حصين .

ولكنّ واحداً منهم ليست عندَه الجرأةُ الكافيةُ لإذاعةِ هذا وإعلانِه، لأنه يخشى أن يُتّهَمَ فى عقيدتِه ، أو يُطعَنَ فى أحبِّ شئٍ إليه ، وشئٌ آخرُ يمنعُه من الكلام ، ويُلزِمُه الصّمت ، ذلك أن الدّعوةَ



الجديدة ، ستُحِدُّ من شهواتِه التى لا يجدُ مناصًا من الوقوعِ فيها كعادةٍ مُلازمة ، وطبيعةٍ مُسيطرةٍ ، فلماذا لا يَستمسكُ بهذه العقائدِ مع ما فيها من مُنافاةٍ للعقل ، ومُجانَبةٍ للمنطقِ السليم ، وقد كفَلت له ما يريدُ من إباحيةٍ مُطلَقةٍ ولَذاذاتٍ مختلفة .

وإذا خلا واحدٌ من هؤلاءِ إلى نَفْسِه ، حاولَ أن يكبتَ هذا الشعورَ كبتا ، ويخنِقَه خنقا ، فليس من المصلحةِ إعلانُه ، فلا داعِيَ لتحمُّل التبعاتِ والمسئولياتِ من حينٍ إلى حين .

وكانت عيونُ هذا الوفدِ ترقبُ بابَ النَّبي ، وتكادُ تلتهمُ كلَّ داخلٍ أو خارج ، وأخذ خيالُ كلٍّ منهم يسبحُ فيما يمكنُ أن يدور ، وما يُحتملُ أن يحدُث ، فهذا متفائلٌ ، ينتظرُ من وراءِ هذه الزيارةِ الخيرَ الكثير ، ونجاحَ المسعَى ، وإجابةَ المطلب ،

وبخاصةٍ أنه مَطلبٌ سِلميٌّ وديع ، وهذا متشائم ، ولكنه فهِمَ الموقفَ على حقيقتِه ، فلا يمكنُ لمحمدٍ أن يدعَ سبَّ هذهِ الآلهةِ أو تسفيهَها ، لأن دعوتَه تقومُ على توهينِ عقائدِ الجاهلية ، ومحاربةِ عاداتِها المرذولة ، وأدوائِها التي وضعَتِ العربَ هذا الوضعَ الشاذَّ من تعدُّدِ الآلهة ، والضَّربِ في فيافي الخيالِ الكاذبِ والوهمِ الحائر. لابدَّ إذن أن يبوءَ هذا السَّعيُ بالخُسرانِ والخَيبة ، وهنا لابُدَّ لقريشٍ أن تفكِّرَ من جديدٍ فيما يجبُ أن تسيرَ عليه .

ولم يأبهْ عمرانُ بأبيه حصين حينما دخلَ إلى مجلسِ الرَّسولِ صلى اللّهُ عليهِ وسلم ، بل ظلَّ جالسا ، ولم يلتفِتْ ناحيتَه ، لأنه يرى عِزَّةَ المسلم ، وذِلَّةَ الكافر ، مهما كان وضعُه ، وأن الاحترامَ لا يكونُ لشيء كائنًا ما كان إذا خلا من الإسلام . وبهذا الإيمانِ الثَّابتِ ظل عمرانُ كما هو ، ولكنه عجِب لوالدِه لماذا يجيءُ الآن؟ وما عَلاقتُه برسولِ اللّه ؟ وفي أيِّ غرضٍ سيتحدَّث ؟ وكيفَ وجدَ من نفسِه الجرأةَ ليدخلَ إلى هذا المجلسِ السامي . والحضرة الرفيعة . وهو على ما هو عليه من الكُفر والشِّرك ، والتِّيه



فى فيافى الضَّلالِ والفساد ؟ تُرى أجاء يقاوِم الفكـرةَ الإسلامية ؟ أم هو ينوى اعتداءً مقيتا ؟ إنـه يعرف أن والـدَه ليس عنـدَه هـذه الرّوحُ مع أنه من الكافرين المُتعصّبين ، إذن ، فهو يريـدُ الهدنـةَ من الرّسولِ الكريم ، فلا سبابَ ولا نقْدَ لهذه الآلهةِ البكماءِ الصّمّاء !

وذهِل عمرانُ حينما بدا على النّبى الفرحُ والسرورُ لرؤيةِ والدِه حصين ، وخاصةً عند ما قال عليه السّلام أوسِعوا للشّيخ .

وجلس حصين ، وقد سره أن يقابَلَ بهذا التّرحيب ، الـذى لم يكنْ ينتظرُه ، وشعر بعاطفةٍ تجذبُـه نحو هـذا الرَّجلِ العجيب ، الذى يقفُ أمامَ العالَمِ كلِّه بهذا الإيمانِ القوى ، وتلك الشّـرذِمةِ القليلةِ من المسلمين ، وأحس إحساساً عميقاً بمنزلةِ هـذا الرجلِ

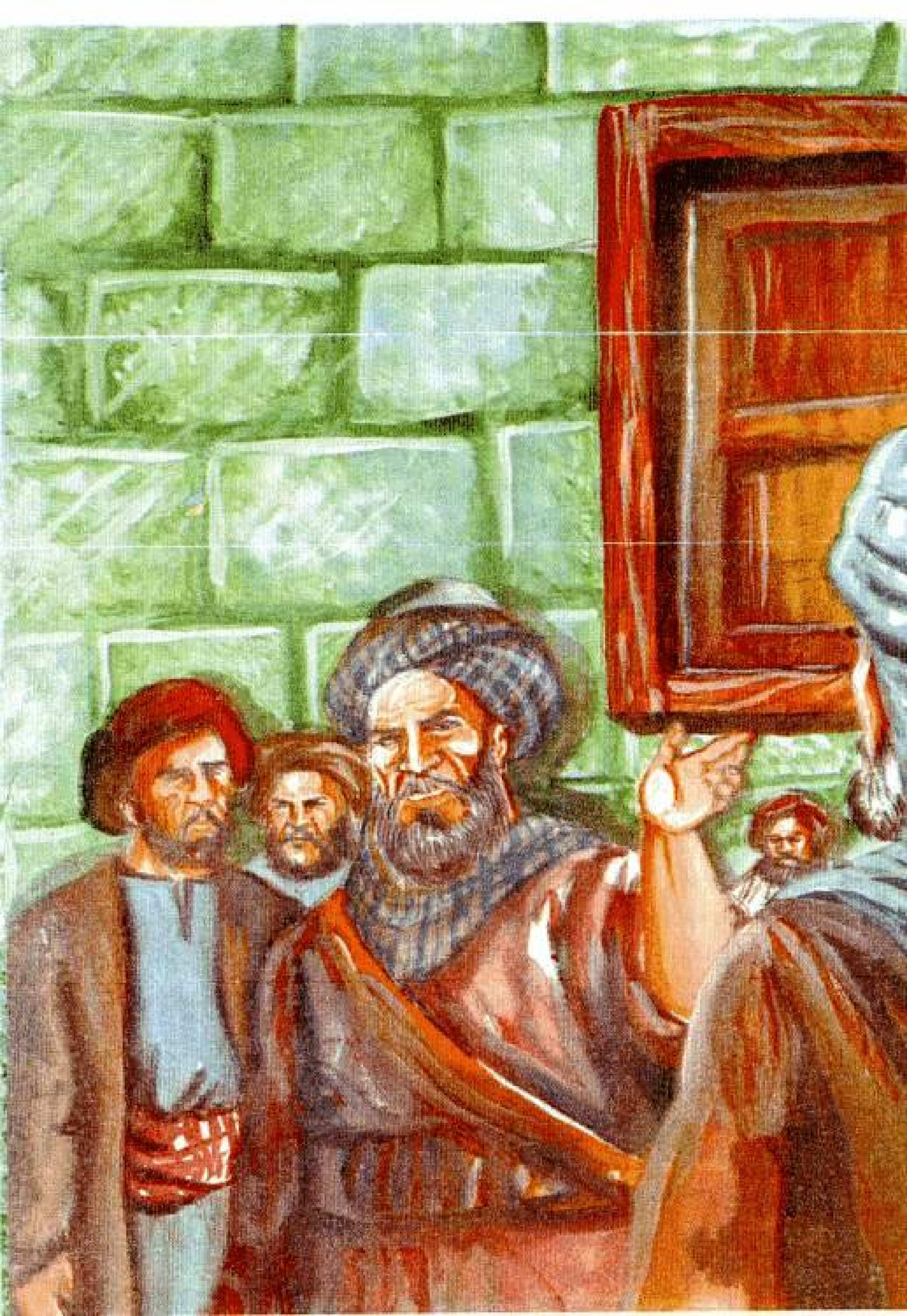


عندَ مَن بيدِه ملكوتُ السّمواتِ والأرض ! .

شعر بهذا وأحسَّ به ، ولكنه مع ذلك قال مخاطبًا النبيَّ الكريم !
ـ ما الذى بلغنا عنك ؟ بلغنا أنك تشتمُ آلهتَنا وتذكرُها .
فصمتَ الرّسولُ قليلاً ثم قال يا حصين ! كم تعبدُ من إله ؟

وأخِذَ حصين من هذه المفاجأة التى لم يكنْ يتوقعُها أو يعملُ لها حساباً من قبل . ولكنه وجدَ نفسَه أمامَ الأمرِ الواقعِ الذى لا مناصَ منه ، وبخاصةٍ وقد ألفَى نفسَه وسَط جمعٍ من المسلمين فيهم ابنُه، فأجاب سبعةٌ فى الأرض

وصَمت المسلمون ، وقد صاروا جميعاً آذاناً مُصغِية ، ليعرفوا خبرَ هذه الآلهةِ السّبعة ، ولكن حصيناً أردف :
ـ وواحدٌ فى السماء.!!
وهالَهمُ الأمر ، بيدَ أن الرّسولَ الكريمَ لم يدَعْ فرصةً لمتكلّم ، فقال مُتسائلاً فى رفقٍ وحزم :
ـ فإذا أصابك الضُّر ، فمنَ تدعو ؟!
قال حصين ، وقد بدتْ عليه علائمُ الارتباكِ والحَيْرة :
ـ الذى فى السّماء !
ـ فإذا هلكَ المالُ مَن تدعو ؟
ـ الذى فى السّماء !
وهنا تَمّت الحجّةُ على حصين ، فقال الرّسولُ الكريم :
ـ يستجيبُ لك وحدَه ، وتُشرِكُ معه أرضيتَه فى الشّرك ؟!
وهنا ذَهل حصين ، ولم يدرِ كيف يجيب ، إنه لمنطقٌ معقولٌ ، وإنه هو نَفسُه الذى سلّم بهذه المقدمات ، دونَ أن يتدخّل فى



شأنِه أحد ، فكيف إذن يتخلّصُ من هذا الموقف ؟ حقًا ، إن إلـهَ السماءِ هو الذى يُجيبه ، وهو الذى يسمعُ دعاءَه ، وهـو الـذى يهرَع إليه فى المُلمّات ، ويضـرعُ إليـه إذا أصابه شر ، أو نالـه مكروه ، فلماذا يُشرِكُ معه آلهـةَ الأرض ؟ مع أنهـا لا تُقـدّمُ لـه شيئاً ، من خَيرٍ أو شر ؟

ولم يدعْه الرسـولُ للشكوكِ تنتابُـه ، ولا الظُّنونِ والخيـالاتِ تلعبُ به ، فقال له فى إقناع :

ـ يا حصين ، أسلِمْ تَسلمْ .

وكأنما كانت هذه العبارةُ القليلةُ مفتاحَ الخير ، وكأنمـا كـانت جوارحُ حصـين فى انتظارِها ، وكأنما كـانت السَّـماءُ مُفتّحـةَ الأبـواب ، فاستجاب اللّـهُ لرسـولِه هـذه الرغبـةَ الصّادقـة ، فاستجابَ لها كذلك قلبُ حصينٍ وغمَرَه النورُ وشمِلهُ الضَّوءُ من كـلِّ مكـان ، وانْدحرت ظلماتُ الشِّركِ أمامَ رغبـةِ الرَّسـولِ الكريم ، فقال حصين فى عزمٍ وصراحة :

ـ أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللّه

وأنَّ محمداً رسولُ اللّه .

وتكهربَ الجو .



هذا رجلٌ كافر ، يدخلُ لينصرَ دينَ الشركِ والضَّلالة ، ويريدُ أن يظفرَ لقريشٍ بنصرٍ يُرضيهم ، فيظفرَ به الإسلامُ والمسلمون .. !!

هذا رجلٌ دخلَ ليَخرُج حاملاً إلى وفدِ قريشٍ بِشارةَ السَّلام ، ويعلنُ لهم امتناعَ محمَّدٍ وأصحابه عن الطَّعنِ فى آلهتِهم ، والابتعادِ عن سبِّها ونَقدِها ، فلا يصلُ إلى هذا ، وإنما ينعكسُ الوضعُ ويَخرُج إليهم وقد انسلخ من دينِهم ، فلا تكونُ البِشارةُ سوَى نذيرٍ يُنذرُهم بعذابٍ ما حقٍ إذا لم يُقلِعوا عمّا هم فيه ، ويَرجعوا إلى الطَّريقِ المُستقيم ، ويؤمنوا كما آمن ويهتدوا كما اهتدَى !!

هذا رجلٌ يدخلُ وهو زعيمٌ من زعماءِ قريشٍ يواليهم ويوالونه ، ويحبُّهم ويحبونه . ويعتبرونه حلاَّلاً لمُعضِلاتِهم ومَلجأً لِمَنْ يبغي المشورةَ النّاضجة ، والرأيَ السّديدَ ، ويخرج وهم عدوٌّ لدود من أعدائِهم ، يعلنُ عليهم الحربَ مع المُعلِنين ، ولا يسيرُ في رِكابهم ولكن فى رِكابِ المسلمين !!



سبحانَ مقلّبِ القلوب ! إن أمرَ اللّه إذا جاء فلا مُعقّبَ لحُكمِه ، ولا راد لما أراد .

وارتفعت هَمهماتٌ من هنا وهناك ، واختلطت أصواتٌ مبهَمةٌ كلُّها الفرحُ والسرورُ الغامر .

ولكن صوتًا ارتفعَ على هذه الأصواتِ جميعا ، وصاح صَيْحةَ الفَرح ، ذلك صوتُ عمرانَ رضيَ اللّه عنه ، إذ قام من فَوْرِه وقد اختلف شعورُه عن ذى قَبل اختلافًا كبيرا ، قام إلى والدِه وقبّلَ رأسَه ويديْه ورجلَيه ، وحار في أمرِه ماذا يفعلُ أكثرَ من ذلك ، ولكنه لم يجدْ أدلَّ من هذا على الاحترامِ والحب ، والتّقديرِ والإجلال ..

وفاضت دموعٌ حينذاك؛ ولكنها دموعٌ عزيزةٌ سامية، تلك دموعُه صلواتُ اللّه وسلامُه عليه : لقد بكَى فرَحا ، وغبطةً وسروراً وانشراحاً بهذا المظهر العجيب ، فلِلّهِ هذه الدموع، ما أنقاها وأطهرَها!!

وذهِل الصَّحابةُ حينما رأوْا هذه المناظرَ بتلك السُّرعةِ العجيبة.. إسلامَ



رجلٍ من أكابرِ قريش ، وليس هذا فحَسْب ، ولكنه كان يريدُ نقاشاً وجدلا ، ونُصرةً للكفرةِ والمشركين .. واحترامَ ابنٍ له بعدَ ما كان لا يحترمُه ولا ينظرُ إليه؛ لأنه كان حينئذٍ من الكافرين . ثم بكاءَ الرّسولِ الكريمِ لمظهرِ هذا الاحترامِ من ابنٍ مسلمٍ لوالدٍ أسلمَ وآمن باللّه ودخل في حظيرةِ المسلمين ...

وساد صمتٌ عجيب ، وشمِل المجلسَ سكونٌ وهدوءٌ شامل ، وتطلّعت العيونُ شاخصةً إلى الرّسولِ الكريمِ الذي قال في هدوءٍ وحنان :

ـ بَكيتُ من صُنعِ عمران .

وكأنما تساءلتِ العيونُ الشّاخصةُ عن السّبب ، فأردف :

ـ دخل حصينٌ وهو كافر ، فلم يقُمْ إليه عمران ، ولم يلتفِتْ ناحيتَه، فلمّا أسلمَ وفّى حقَّه ، فدخلني من ذلك الرِّقّةُ ..

وكَفكَف الصّحابةُ دموعَ الفرحِ من هذه المَوْجةِ الغامرة ، وجلسوا يتسامرون حيناً ، حتى اكتفَى حصينٌ بهذه الجلسةِ ليعودَ إلى وفدِ قريشٍ الذي لا يزالُ ينتظرُه خارجَ الدّار . وهنا قال رسولُ اللّه صلى اللّهُ عليه وسلمَ لأصحابِه :

ـ شيّعوه إلى منزِله .



وعجِبَ بعضُ الصَّحابةِ لذلك ، ولكنَّ البعضَ الآخرَ فهِم السِّرَّ فى هذا ، وهو أنه صلى اللّهُ عليهِ وسلم خشِيَ أن ينالَ القرشيّون حصينا بسوء ، هذا من ناحية ، ومن ناحيةٍ أخرَى ، إن هذا تكريمٌ له لإسلامِه وإيمانِه ، وتشجيعٌ لغيرِه على الإيمانِ والإسلام .

وما إنْ خرج حصينٍ من سُدَّةِ الباب حتى هَرَعَ إليه القرشيّون ، وفى عيونِهم لهبٌ ونيران ، وقلوبُهم تتلظّى حقداً وكراهيَة ، ونقمةً وثَورة ، وانطلقت ألسنتُهم تنالُهُ بسوء ، وتقول :

ــ قد صَبأتَ .

وتحوَّلتِ النَّظراتُ إلى سُخريةٍ وإشفاقٍ ورِثاء ، وسرعان ما تفرَّقوا عنه .

وسار حصين إلى بيتِه ، ومعه صحابةُ الرَّسولِ الكريمِ ، وكان مَوكِبا جميلا ، رائعاً فتانا ، سعِدت به القلوبُ المؤمنة ، وارتاحت له العيونُ النَّيِّرة ، وحفَّه اللّهُ بالبركاتِ والرَّحمات ، وما بالُك بشخصٍ بُدِّلت سيئاتُهُ حسنات ..

لقد أنارَ به الكون ، ورَفرفت عليهِ الملائكة ..

